فلسفة غربية حديثة

السنة الثالثة LMD

السداسي الأول

مقدمة عامة

أن التعرف على أهم المحطات الفلسفية التي أنتجتها الشعوب لهو من الأمور الضرورية التي تمكن الطالب من التعامل الموضوعي مع مختلف المسائل الفلسفية. ونظرا للتناول المكثف لهذه المرحلة الهامة التي هي الفلسفة الغربية الحديثة، فأنه لمن الضروري الإشارة إلى عدة نقاط نعتبرها بمثابة المدخل الأساسي الذي يعكس صورة تتسم نشئ من الموضوعية، نقول هذا لأن الباحث في هذا الباب يجد من الدراسات التي قد تصعب عليه الاختيار.

المهم الذي نروم إليه هو تناول الفلسفة الغربية الحديثة من جوانب نراها مهمة بالنسبة لمن يريد الاستزادة في هذا الباب الواسع. مادام المقصود بالفلسفة الغربية الحديثة هو تلك المنتجات ذات الطابع الفلسفي التي أبدعها الأوروبيون على امتداد أربعة قرون، أي من القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر، لكن ما تجدر الإشارة إليه هو أن كل هذا الكم الفكري بتنوعه واختلافه ليس وليد صدفة، بل هو ثمرة جهود ومعارك فكرية عرفتها الشعوب الأوروبية قبل القرن السادس عشر. وهذا يعني أنه لا يمكن النظر إلى الفلسفة الغربية الحديثة إلا من كونها نتيجة لما سبق وعلة لما يلحق، هذا من جهة ومن جهة أخيرة لابد من الانتباه إلى أهم التغييرات التي جاءت بها هذه الفلسفة، والتطرق إلى الفلاسفة قد لا يبين هذا الجانب الثاني. المسألة الأخرى التي كذلك يجب لفت النظر إليها بحكم أهميتها هو اعتماد الفلاسفة الغربيين على اختلاف مشاربهم على النقد بالمعنى الواسع مما سمح لكل فلسفة ان تتجاز سابقتها دون أن تنكر قيمتها على الصعيد المعرفي، وبهذا يمكن القول أن الخطاب الفكري الغربي الحديث كان خطابا فلسفيا بامتياز زيادة على كونه أمد جسورا لمختلف أنواع المعرفة (سياسة–فن–أخلاق–اقتصاد...ألخ

محتوى الدورس:

اولا: محددات ظهور الفلسفة الغربية الحديثة

ثانيا: أهم خصائص الفلسفة الغربية الحديثة

ثالثا: أهم التيارات الفلسفية الغربية الحديثة.

أولا: محددات ظهور الفلسفة الغربية الحديثة

الفلسفة الحديثة التي تبدأ من عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر و تنتهي بوفاة هيجل سنة 1831 وفي نظر البعض الآخر تنتهي بوفاة نيتشة سنة 1900. وعند هذا التاريخ تبدأ حقبة الفلسفة المعاصرة و المستمرة حتى الآن. و تضم الفلسفة الحديثة أعلاماً مثل فرنسيس بيكون (1561–1626) ورينيه ديكارت (1596–1750) وسبينوزا (1632–1677) ولايبنتز (1646–1716) وجون لوك (1632–1704) وديفيد هيوم (1711 – 1776)،وأخيراً إمانويل كانط (1724–1804) الذي يُنظر إليه على أنه آخر الفلاسفة المحدثين.

يعتقد الكثيرون (إيميل بريي و وليام كولي رايت وبعض المفكرين العرب أمثال زكي نجيب محمود وأحمد أمين) أن ديكارت هو أول فيلسوف محدث، لأنه أول من وضع للتفكير الفلسفي منهجاً يقوده ويوجهه في بحثه و المتمثل في كتابه «مقال عن المنهج» ولأنه بادئ التيار العقلي في الفلسفة الحديثة و الذي سوف يكون أحد أهم تياراتها، ولأنه صاحب أول من أبدع نسقا فلسفيا متكاملا حديثا، يضم نظرية في المعرفة والميتافيزيقا والأخلاق، ولأنه وضع الذاتية كمبدأ أول للفلسفة وللنسق الفلسفي، إذ بدأ ديكارت بعد الشك المنهجي بإثبات وجود الذات ومنها استنبط حقيقة العالم ويقين العلوم وأثبت وجود الله وخلود النفس.

ويذهب البعض الآخر إلى أن الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون هو الذي افتتح تاريخ الفلسفة الحديثة، لأنه كان صاحب منهج تجريبي يستند على الاستقراء من الوقائع وكان بذلك بداية للتيار التجريبي في الفكر الحديث والذي استمر من بعده لدى هوبز و لوك و هيوم، و لأنه واضع قانون جديد في التفكير أحله محل المنطق الأرسطي و المتمثل في كتابه الأساسي

«الأورجانون الجديد» (Novum organon)* والذي ظهرت فيه نظرية بيكون في الأوهام الأربعة أو الأصنام الأربعة**، التي أراد من خلال ذلك إعطاء قوة جديدة للعقل العلمي الجديد، وأول الأصنام حث على التخلص منه وهو ***أصنام القبيلة*** الذي يقصد به النزعة الطبيعية المودة عند الإنسان لتعميم الأحكام دون مراعاة المعطيات كما هي موجودة فعلا، أما الثاني فهو ***أصنام الكهف*** ويتعلق بالفرد ذاته وطرق تفكيره التي لا تكون دائما موضوعية وهذا بسبب الظروف التي عاش فيها ذلك الفرد فالبعض يركز على الاختلافات والبعض الآخر على التشابهات، أما الثالث النوع الثالث هو ***أصنام السوق*** الذي يقصد بها ما ينشأ من تصورات عامية غامضة بسبب الألفاظ الغامضة الحاملة لتلك التصورات، والنوع الرابع والأخير هو أصنام المسرح والمقصود بها عند بيكون هو القيمة التي تعطى للنظريات القديمة الموروثة من الماضي وأصبحت غير صالحة لتفسير الواقع الحالي. ومن خلال التخلص من هذه الأوهام أو الأصنام يمكن للعقل أن يقفز قفزة نوعية تسمح له بتأسيس منهج يؤدي إلى إنتاج علوم تساعد على سيطرة الإنسان.

حيث جسد سعي الفكر الحديث في التحرر من الآراء المسبقة الموروثة والأفكار الشائعة، وكان يقصد بها الفلسفة الأرسطية، إذ قد استطاع تحرير الفكر الحديث من سلطة فلسفة العصور الوسطى والفلسفة الأرسطية ومكنه من البدء بداية جديدة تماماً غير معتمدة على أي مذهب فلسفي سابق موروث، مما مكن الفلسفة الحديثة من امتلاك استقلال وشخصية متميزة و خصائص جديدة.

محددات نشأتها

نشأ الفكر الفلسفي الحديث في ظل ظروف حضارية وثقافية خاصة كانت بمثابة المحددات التي أنجبته، ومن أكثر الذين أرخوا لهذه النقلة الفكرية النوعية ولهلم ديلتاي حيث خصص الفصل الأول كاملا للبحث عن أهم المقومات الفكرية الحاسمة التي ميزت القرنين الخامس والسادس عشر، مِكدا على أن القرن السابع عشر بثراءه العلمي والفلسفي ما هو إلا نتيجة لما حدث طيلة القرنين المذكورين في كتاب مهم "تصور العالم وتحليل الإنسان"* فإذا كانت الفلسفة تعبيرا فكرياً

* ظهر لأول مرة سنة 1620.

** Wilhelm Diltey, Conception du monde et analyse de l'homme , trad Sylvie Mesure, édition du cerf, 1999.

عن عصرها وابنة هذا العصر، فإن المناخ العام هو الذي يساعد على إنضاجها. وكانت هناك **عوامل عديدة** أسهمت في ظهور الفكر الفلسفي الحديث أهمها:

1) العامل التاريخي: تمثل في استرداد الأسبان للأندلس في أواخر القرن الخامس عشر، مستولين بذلك على ذخائر التراث العربي التي وجودها هناك. بالإضافة إلى ظهور حركة الكشوف الجغرافية، وفتح بذلك آفاق جديدة للتجارة مع العالم الجديد والاستيطان به. وتمثل ثاني عوامل نشأة الفكر الفلسفي الحديث في ظهور الروح العلمية الحديثة وازدهار العلوم التجريبية.
2) الثورة العلمية التي أحدثها العالم البولندي نيقولاوس كوبرنيقوس (1473–1543) باكتشافه للنظام الشمسي. كان العالم قبل كوبرنيقوس يعتقد، تحت تأثير فلسفات العصور الوسطى التي كانت تعتمد على نظام بطليموس الفلكي، أن الأرض ثابتة وفي مركز الكون،والسماء بما فيها من نجوم وكواكب وشمس وقمر، تدور حولها. لم يقتنع كوبرنيقوس بهذه الفكرة الساذجة واكتشف أن العكس هو الصحيح، أي أن الشمس ثابتة والأرض هي التي تدور حولها، وكذلك اكتشف دوران الكواكب حول الشمس، أي المجموعة الشمسية. كان هذا الاكتشاف من العوامل التي أدت إلى فقدان الثقة بكل الفلسفات والعلوم الموروثة وخاصة فلسفة أرسطو، مما مكن الفكر الأوروبي من التحرر من ثقل تراث الماضي والبحث بنفسه عن أسرار الكون.وبعد كوبرنيقوس جاء العالم الألماني يوهانس كبلر (1571–1630) الذي أحدث ثورة أخرى في علم الفلك والرياضيات، إذ أضاف إلى نظرية كوبرنيقوس تعديلاً هاماً يذهب إلى أن دوران الكواكب حول الشمس لا يأخذ شكل الدائرة الكاملة بل الشكل البيضاوي، كما اكتشف أن حركة الكوكب تتسارع في مداره عندما يقترب من الشمس و تتباطأ عندما يبتعد عنها، وكان هذا مما ساعدا سحق نيوتن بعد ذلك على اكتشاف القوانين العامة للجاذبية. و كذلك اكتشف كبلر العلاقة الوثيقة بين علم الفلك والرياضيات، حيث أدرك أن الرياضيات هي أداة البحث في الفلك و الفيزياء عامة. كما أحدث العالم الإيطالي جاليليو (1564–1642) ثورة علمية أخرى عندما اكتشف العلاقة بين الكتلة والسرعة و بين الساكن والمتحرك في الأجسام في حالة الاصطدام، وظاهرة تسارع و تباطؤ السرعة، و وضع

نظرياته في صورة رياضية دقيقة مما مكن العالم من اكتشاف الطابع الرياضي للقوانين الفيزيائية. كما دافع جاليليو عن نظرية كوبرنيقوس في المجموعة الشمسية وأجرى عدداً من الملاحظات الفلكية تؤيد تلك النظرية و اكتشف عددا من أقمار كوكب المشترى. و من أجل تبنيه و دفاعه عن نظرية كوبرنيقوس اتهمته الكنيسة وخضع لمحكمة التفتيش وصدر في حقه حكمً بالحرق لكنه لم ينفذ، وظل جاليليو تحت الإقامة الجبرية المقيدة في منزله قرب فلورنسا، حيث فقد بصره وتوفى.

3) ظهور الصناعة والفنون وإلى جانب الروح العلمية تطورت فنون الصناعة، ذلك لأن الحروب التي دخلتها البلدان الأوروبية آنذاك أدت إلى زيادة استخدام البارود والأسلحة النارية، مما شجع على تطور الأبحاث الكيميائية والصناعات لمعدنية. والملاحظ كيف تداخلت هذه الفنون مع تطور العلم الحديث، فعندما كان جاليليو يدرس سقوط الأجسام والعلاقة بين الكتلة والسرعة والجاذبية ضرب مثالاً شهيراً وهو قذيفة المدفع التي تأخذ مساراً منحنياً، ودرس بدقة سرعة القذيفة والعلاقة بين المنحنى والمسافة التي تقطعها.
وكان أهم اختراع في هذا العصر هو اختراع المطبعة على يد جوتنبرج.
والحقيقة أن هذا الاختراع كان له أبلغ الأثر في أن يأخذ الفكر الحديث طابعاً جديداً مختلفاً عما سبقه. إذ انتشر الكتاب المطبوع وأصبح للقراءة جمهور واسع، ولم تعد الفلسفة مقيدة بفئة محددة من المتخصصين بل أصبحت شأناً عماً لكل المثقفين، حتى أصبحت مؤلفات الفلاسفة تقرأ من جمهور عريض مثل الأعمال الأدبية، وبذلك لم يعد الحكم على الأفكار في يد طائفة من رجال الدين أو الأكاديميين بل احتكم الفلاسفة إلى كل من له عقل سليم وفكر حر وبصيرة ذاتية، وكان هذا عاملاً على انتشار النزعات العقلانية والإنسانية في الفكر الغربي.

4) عصر النهضة الأوروبية ابتداء من القرن الخامس عشر، وقد كانت نهضة شاملة،فكرية وأدبية علمية. ظهرت بدايات عصر النهضة عندما فتح الأتراك القسطنطينية سنة 1453 واسترد الأسبان آخر جزء من الأندلس وهو غرناطة في تسعينات القرن الخامس عشر، وانتقل بذلك التراث اليوناني والروماني إلى غرب أوروبا، فظهرت حركة واسعة لإحياء الآداب اليونانية واللاتينية.

كانت هذه الآداب تركز على الإنسانيات مما أدى إلى ظهور نزعة إنسانية قوية في الفكر الأوروبي، ولم يمنع إحياء التراث اليوناني الفكر الأوربي من أن يأخذ موقفاً نقدياً منه، فقد توافق هذا الإحياء مع نقد واسع وشامل لفلسفة أرسطو عن طريق الاستعانة بفلسفة أفلاطون وأفلوطين والأفلاطونية المحدثة، وظهر هذا بصورة واضحة لدى جيوردانو برونو (1548–1600) وتوماسو كامبانيلا (1568–1639)، أو الاستعانة بالمنهج التجريبي في حالة فرنسيس بيكون، إن نقد المنطق الصوري الأرسطي الذي يعتمد على مقدمات عامة نظرية وعقلية صرف وأكد على ضرورة الاعتماد على الملاحظة والتجربة والاستقراء.

5) حركة الإصلاح الديني بقيادة مارتن لوثر (1483–1546) وجون كالفن: كانت هذه الحركة تهدف إلى تجديد الدين المسيحي بالتخلص من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية والعودة إلى جوهر المسيحية الصافي في منابعها الأولى دون أية تأويلات أو عقائد نظرية جامدة يفرضها رجال الدين، وظهرت بذلك الحركات البروتستانتية والبيوريتانية أو الطهرية كما تسمى التي تركز على الجوانب الأخلاقية من رسالة المسيحية، وتؤكد على قيم الزهد والعمل، وعلى الضمير الإنساني اليقظ، وعلى استقلال الإنسان بحيث يكون موجهها لأول هو الكتاب المقدس نفسه دون وساطة من كهنوت أو مؤسسة دينية. وأعطت حركة الإصلاح الديني الحرية لكل إنسان في أن يفهم الكتاب المقدس وحده دون استعانة بأحد، واثقة بذلك من قدرة العقل الإنساني والضمير الحي على الفهم وعلى تبني الرسالة والعمل بها. ولذلك عمل لوثر على ترجمة الكتاب المقدس الذي كان مكتوباً باللاتينية وحكراً في يد رجال الدين وعلماء الكنيسة والمثقفين، إلى الألمانية وهي أول لغة أوروبية حديثة يترجم إليها الكتاب المقدس، وتوالتا لترجمات بعد ذلك إلى كل اللغات الأوروبية، مما وضع الكتاب المقدس أمام الجمهور الأوروبي في كل قومياته، وكان هذا عاملاً على إتاحته للنظر والفهم المختلف والتفسيرات المتعددة. أكدت حركة الإصلاح الديني على أهمية الإنسان وضميره الفردي ومسئوليته الشخصية، وكانت عاملاً على نضوج النزعة الإنسانية الفردية والاستقلال الفكري.

6) حركة الأنوار الغربية: إن أهم عامل أعطى الفكر الغربي الحديث وعلى رأسه جزئه الفلسفي هو ظهور حركة فكرية مست جميع الأنشطة الفكرية وتتمثل كما تسمى في حركة الأنوار (Les lumières) بالفرنسية و(Aufklarung) بالألمانية، وقد مثلت انطلاقة حاسمة في تارثخ الفكر الغربي كما يقول ابن داود عبد النور*، وفي نظره تعد الأنوار الامتداد التاريخي لمنجزات عصر النهضة . ثم يواصل في وصف هذه المرحلة الهامة قائلا: ‹‹ وهكذا كانت الأنوار مشروع الإنسان الطلق الذي لا يتقيد بشروط خارجية عن إمكانياته، أو مفروضة عليه بقوة الحديد ، إنها الأنوار التي انهالت على المعتقدات الراكدة من أجل تجسيد ورسم معالم الذات الغربية، فأزاحت من طريقها مناهج السلطة البابوية واخترقت دياجير القرون الوسطى لتعلن عن ميلاد "عصر العقل". ››[1]. وبالتالي تشكل وعي بين مشترك مفاده أن البديل الحتمي لفكر الكنيسة هو العقل.وما دعم حركة الأنوار ومنحها قوة أكثر هي النجاحات التي حققها العلم الطبيعي إن على الصعيد النظري أو على الصعيد العملي التطبيقي.

ثانيا: مميزات وخصائص الفلسفة الغربية الحديثة

إن الحديث عن أية فلسفة لابد وأن ينطلق من عناصر تزيل بعض الصعوبات التي من الممكن ان تظهر عند التطرق إلى تفاصيل هذه الفلسفة أو تلك. إلا أن الصعوبة في تناول تاريخ أي فلسفة تكمن في الكيفية التي بها يتم تناولها، فبالنسبة للفلسفة الغربية تحديدا، هل الأفضل هو التطرق إلى كبار فلاسفة العصر الحديث؟ أم البدء بالتيارات الفلسفية التي شكلتها أم الأحسن والأفضل هو التطرق إلى الفلسفة بناء على التتابع الزمني وكرنولوجيا ظهور الفلاسفة؟

إن كل هذه الإجرائيات موجودة ومستعملة من طرف الدارسين والباحثين وبالتالي لا توجد ضوابط مشتركة في تاريخ الفلسفة ويبقى الأمر متعلقا بخيارات كل دارس، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة.

في إطار محاولتنا التعريف بالفلسفة الغربية الحديثة لا يمكن أن ننتقل إلى ذكر مضمون كل فيلسوف ما لم نطلع على أهم الخصائص التي ميزت هذه الفلسفة، وبالتالي يمكن القول أن

* ابن داود عبد النور، المدخل الفلسفي للحداثة، تحليلية نظام تمظهر العقل الغربي، منشورات الاختلاف، ط1، 2009.
[1] المرجع السابق، ص ص 38-39.

ذكر هذه الخصائص لا يعني أبدا أنها لا تتفق فيها مع فلسفات أخرى خاصة منها الفلسفة المعاصرة. وعلى هذا الأساس الخصائص التي ستناولها بالذكر والشرح والتحليل إنما ارتبطت فعلا بالفلسفة الغربية الحديثة.

تميزت الفلسفة الحديثة بمجموعة من الخصائص العامة، وهي عامة لأنها تطبع أغلب التيارات والمذاهب الفلسفية على الرغم من اختلافها في المنطلقات والمنهج والتوجهات. وما يجعلنا نختار الخصائص التالية باعتبارها تميز الفلسفة الحديثة بالذات أنها هي ما يفرق بينها وبين الفلسفات الأخرى، القديمة والإسلامية والوسيطة والمعاصرة. وليس معنى هذا أن هذه الخصائص لم توجد إلا في تيارات الفلسفة الحديثة، بل على العكس، إذ ظهرت فلسفات أخرى غيرها ذات توجهات عقلانية وإنسانية وفردية ونسقية، بل يعني ذلك أن هذه الخصائص لم تجتمع معاً إلا في عصر فلسفي واحد هو عصر الفلسفة الحديثة. وما كان إرهاصاً للعقلانية أو الفردية أو النسقية في الفلسفات السابقة عليها، تمتع بنضج وتطور مكتمل في الفلسفة الحديثة بالذات. ومن جهة أخرى فإن هذه الخصائص سوف تنتهي عن أن تميز الفلسفة في الفترة المعاصرة. ففي مقابل العقلانية سوف تظهر في الفلسفة المعاصرة اتجاهات لاعقلانية تعتمد على أسس أخرى غير العقل، مثل الحدسانية عند برغسون، والمنفعة عند بنتام وجون ستيوارت مل، والنجاح العملي عند البراجماتيين الأمريكيين، واللغة عند فلاسفة التحليل وعلى رأسهم رسل وفتجنشتين وآير.

1 - الطابع العقلاني

يجب أن نميز في البداية بين العقلانية باعتبارها خاصية عامة للفلسفات الحديثة عن المذهب العقلاني (Le rationalisme)، فكل الفلاسفة المحدثين يقرون بقدرة العقل المعرفة أي يتمسكون بقدرة العقل على إدراك الواقع ويذهبون إلى أن كل سلوك إنساني صادر عن التفكير وعن استخدام الملكات الذهنية العليا، لكنهم ليسوا كلهم عقليين. فالمذهب العقلاني هو المذهب الذي أسسه ديكارت كان يتضمن فكرة أساسية يختلف فيها مع التجريبيين وهي أن العقل قادر على إدراك الحقائق الأولية البسيطة أو كما يقول ألكيي ‹‹ إن عقلنا على قادر، بنظر ديكارت على أن يعرق مبادئ بسيطة وحقائق لا يرقى إليها الشك وذلك بواسطة أضوائه الطبيعية وحدها أي بواسطة الحدس ››، وهو قادر من ناحية أخرى، وبفضل الاستنتاج ‹‹ على أن يفهم حقيقة ما

على أنها نتيجة حقيقة أخرى سابقة نحن منها على يقين ›› [2]. وتبعه بعد وفاته ما يسمى بالمدرسة الديكارتية أو الديكارتيين، ومن أهم أتباعه وسبينوزا* (1632 – 1677) ولايبنتز**(1646 – 1716) ومالبرانش*** (1638 – 1715)، وهو بكونه يعطي الأولوية للعقل في المعرفة وينظر إليه على أنه المصدر الأساسي لكل معرفة وكل علم. وتدعيما لهذا نذكر تعريف إدغار موران للعقلانية حيث قال ‹‹ العقلانية: هي رؤية للعالم تؤكد على الاتفاق الكلي بين ما هو عقلي (التناسق) وواقع الكون. فهي تقصي من الواقع كل ما ليس عقليا وكل ما ليس ذا طالع عقلي (...) ››[3]، والمذهب العقلي من خلال استناده على العقل في كافة الأمور البشرية علمية كانت أو سياسية أخلاقية أدى كما يقول محمد أركون ‹‹› ينبغي أن نعلم أن العقل في أوروبا قد أخذ يقلع حضاريا بدءا من القرن السابع عشر.(...) مرة أخرى لأعود إلى سبينوزا وديكارت . ماذا فعلا في القرن السابع عشر؟ لقد حررا العقل من هيمنة العقل اللاهوتي المسيحي ››[4].

في مقابل هذا هناك المذهب التجريبي الذي يعطي الأولوية للخبرة التجريبية كمصدر أساسي للمعرفة، وما العقل في هذا المذهب سوى ملكة تنشأ عن الانعكاس على عمليات الإدراك الحسي. وليس معنى هذا أن التجريبيين ليسوا عقلانيين، بل على العكس، إذ هم عقلانيون تماماً، لكن تصورهم عن العقل يختلف عن تصور المذهب العقلي، إنهم يعترفون بدور العقل في المعرفة، لكنهم ينظرون إليه على أنه ملحق بالحس والخبرة التجريبية. والعقل عندهم نتاج التفكير في الخبرة التجريبية وليس مستقلاً عنها، إذ يدخل في هذه الخبرة وهو غير محمل بأي أفكار مسبقة فطرية، أي صفحة بيضاء كما يذهب لوك وهيوم فالعقل صفحة بيضاء تكتب عليها التجربة ما تشاء، فلا وجود لأفكار فطرية ولا لمبادئ بسيطة تؤسس المعرفة بشكل مسبق.

ظهرت العقلانية باعتبارها خاصية للفلسفة الحديثة في مقابل اعتماد فلسفة العصور الوسطى على السلطة اللاهوتية. وما قول ديكارت المشهور أنا أفكر إذن أنا موجود إلا تأكيد لهذه القفزة النوعية من عقل كلي مفارق إلى عقل إنساني يسمح له ويؤهله لبناء معرفة تهدف إلى تغيير الطبيعة وهنا لا فرق بين ديكارت كعقلاني وفرانسيس بيكون كمؤسس للمذهب التجريبي،

---

[2] بيار دوكاسي، الفلسفات الكبرى، تر جورج يونس، منشورات عويدات بيروت – باريس، ص 105.

* باروخ سبينوزا فيلسوف هولاندي

** غوتفريد فلهلم لايبنز فيلسوف ورياضي ألماني

*** نيقولا مالبرانش فيلسوف فرنسي.

[3] العقل والعقلانية، نصوص مترجمة من طرف محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ص 7.

[4] المرجع السابق نفسه، ص 16.

فكلاهما يعتبران المعرفة الصحيحة لا تكون إلا من خلال العقل الذي يبني العلم الطبيعي. فالسيطرة على الطبيعة بالعلم الإنساني لا تكون إلا بأداة العقل.

2- إعادة النظر في منهج التفكير

نقول أنّ ما يمز الفكر الغربي الحديث زيادة على كثرة المشتغلين بالفلسفة وتحولها إلى مادة مدرسة في كل الجامعات الغربية، فإنها تعتبر فلسفة طرحت مشكلة المنهج بشكل أدى إلى تغيير عميق على مستوى النظر والتفكير، وهنا نشير فقط إلى ديكارت (1595-1650) وفرانسيس بيكون (1561-1626) وهيغل (1770-1831) الذي أعطى الجدل بعدا فلسفيا وأنطولوجيا وهوسرل (1859-1938) الذي كان من مؤسسي المنهج الفينومينوليجي. ومناقشة مسألة المنهج والبحث فيه شكلت الفاصل الفكري بين الفكر القديم والفكر الحديث، فبدأ من ديكارت مرورا بفرانسيس بيكون اللذين مع اختلافهما في نصور المنهج الأنجع اتفقا على ضرورة ترك المنهج الأرسطي خاصة بالطريقة التي ظهر بها عند المدرسيين، حيث اعتبر الأول المنطق المدرسي سببا في تأخر ظهور العلوم بينما راح الثاني يستبدله بالمنطق الاستقرائي كما أصبح يسمى. ولهذا فالنظر في كيفية تطور مناهج الفلسفة ليساعد كثيرا على الوقوف على نمط التفكير الذي أصيخ سائدا عند الشعوب الأوروبية. ومن هنا النظر إلى الطبيعية في داخل التوجهات العقلانية أخذ طابعا رياضيا كما أكده ديكارت و كذلك غاليلي الذي اعتبر الطبيعة كتابا مكتوبا بلغة رياضية ولا يفهمه إلا الرياضيون.

3- الطابع الإنساني: (l'humanisme)*

معروف لدى الجميع أنّ ظهور النزعة الإنسانية في بداياتها الأولى كان في عصر النهضة، واتخذت أشكالا فنية وأدبية قبل أن تتحول إلى مجال الفكر والفلسفة، وكان من بين بواعث ظهورها حركة إحياء التراث اليوناني-الروماني. أمد هذا التراث عصر النهضة الأوربية برؤية مختلفة للإنسان، تُعطي الأولوية للخبرات الإنسانية الحية وتعلي من قيمته وتنظر إليه على أنه سيد الطبيعة وأعلى الموجودات. كما تهتم بتصوير الطابع الدرامي للحياة الإنسانية وتتخذ الرؤية

* الحركة الإنسانوية أو (l'humanisme) هي حركة فكرية أوروبية نشأت أثناء النهضة وأخذت أشكالا متعددة ذلك أنها مست كل الفنون والمعارف السائدة في تلك الفترة (القرن الرابع عشر)، وأهم ما ميزها هو المطالبة بالعودة إلى النصوص الكلاسيكية إغريقية كانت أو رومانية، ويعتبر الشاعر بيترارك (Pétrarque) 1304 – 1374 من أهم الشخصيات الفكرية والأدبية التي أسست هذه الحركة وتبعه آخرون.

الإنسانية باعتبارها مقياساً لكل شئ، بعد أن كانت الرؤية اللاهوتية هي المسيطرة في العصور الوسطى.

ففي الفن ازدهر النحت على يد مايكل أنجلوا (Michelangelo Di Lodovico) 1475-1564، برز من خلال رسوماته المتعلقة أساسا بتجسيد الجسم الإنساني في حالة الحركة والاهتمام بتعبيرات ملامح الوجه، وفي التصوير الزيتي اهتم ليوناردو دافنشي (Léonardo di ser Piero Da Vinci) 1452 - 1519 برسم وجوه من الحياة اليومية وتصوير الإنسان وهو منشغل في أنشطته اليومية المختلفة، وفي الأدب ظهر شكسبير الذي اهتم بالدراما البشرية وبالصراع والقيم التي تتنازع في النفس الإنسانية، وظهر سرفانتيس (Miguel De Cervantes) 1547-1616 الأديب الأسباني مؤلف رواية «دونكيخوت» التي صورت آمال وأحلام الإنسان عند ما تصطدم بأرض الواقع وتتكسر.

بعد هذا الحراك الفكري انتقلت النزعة الإنسانية إلى مجال الفكر والفلسفة، وصار الإنسان محور ومقياس صدق وحقيقة المعرفة. فعلى الرغم من اختلاف العقليين عن التجريبيين إلا أنهم جميعاً ينطلقون من **أساس واحد، وهو إعطاء الأولوية للرؤية الإنسانية**، سواء كانت هذه الرؤية حساً أو عقلاً. ولذلك ينظر إلى ديكارت على أنه أبو الفلسفة الحديثة، لأنه بدأ مذهبه بعد الشك بإثبات وجود الذات المفكرة وانطلق منها إلى إثبات وجود الإله والعالم وخلود النفس. كما تعد فلسفة هيوم تطوراً في النزعة الإنسانية في الفلسفة، إذ ركز على جانب آخر في الطبيعة الإنسانية غير الفكر، وهو الجانب الانفعالي، وركز على دور الإحساس والإدراك الحسي في المعرفة، وأقام أول مذهب فلسفي على أساس نظرية سيكولوجية في الانفعالات، وذهب إلى أن علم النفس البشرية هو الفلسفة الحقة و هو أساس علوم الأخلاق والسياسة. وظهرت كذلك فلسفة كانط التي أحدثت ثورة في مجال نظرية المعرفة، وأصبح معيار صدق المعرفة هو اتفاقها مع قوانين العقل الإنساني لا مع الظواهر التجريبية المتغيرة، وقدم صورة للمعرفة باعتبارها صادرة عن إخضاع الخبرة التجريبية للقوانين العامة الكلية والضرورية للفهم البشري، بحيث أصبح الفهم البشري هو الذي يضفي الانتظام والموضوعية على عالم الخبرة التجريبية، وأن هذه الخبرة لا توجه المعرفة بل الفهم البشري هو الذي يوجهها وينظمها صانعًا منها معارف وعلوماً.

4- تأكيد الفردانيــة: (L'individualisme)

نظر الفكر الفلسفي الحديث إلى الإنسان على أن هم قياس الأشياء جميعاً، سواء كان عقلاً أو إحساسا أو انفعالاً،و بذلك فإن هذا المقياس فردي في الأساس

فنقطة الانطلاق التي بنى عليها ديكارت مذهبه هي الأنا أفكر، وقد ظهر هذا الأنا أو الكوجيتو على أنه فعل فردي. كما أن نظرية المعرفة عند لوك تتصف أيضاً بالفردية، ذلك لأنها كلها وصف للعمليات الذهنية التي تدور في ذهن الفرد ويؤسس بها المعرفة. كما ظهرت النزعة الفردية واضحة في الفكر السياسي للفلاسفة المحدثين، وازدهرت المذاهب الليبرالية وأهمها مذهب توماس هوبز، وجون لوك وديفيد هيوم، وهي تصف المجتمع على أنه ليس إلا مجموعة من الأفراد، وعلى أن ما يحرك هذا المجتمع المصالح الفردية، ووصفت ظهور السلطة السياسية بفكرة العقد الاجتماعي الذي هو اتفاق بين أفراد على التخلي عن جزء من حقوقهم الطبيعية لتنظيم سياسي يمثلهم.

وظهرت كذلك فكرة الحق الطبيعي الذي هو حق الفرد في حفظ حياته وممتلكاته وتنمية قدراته واختيار حكامه، وفكرة الحق المدني الذي هو حق المواطن الفرد في أن تكون له حقوق مصانة ومعترف بها من قبل السلطة السياسية.

وقد كان التأكيد على الفردية كقيمة عليا جديداً على الفكر الأوروبي بعد عصر الإقطاع الذي لم يكن يعرف أفراداً مستقلين عن الأنساق الاقتصادية والسياسية والدينية التي تشملهم. وبذلك ظهر حق الفرد في تقرير مصيره وحريته في اختيار عقيدته وآراءه وشكل الحكم الذي يلتزم به. ومعنى هذا أن عصر الفلسفة الحديثة كان عصر الفردية بدون منازع، لأن مقولة المجتمع باعتباره كياناً مستقلاً عن الأفراد لم تكن قد ظهرت بعد، وعند ما ظهرت في القرن التاسع عشر لن تعود الفردية هي النزعة المسيطرة على الفكر الأوروبي، إذ سوف تنافسها نزعات أخرى، عضوية وجماعية واشتراكية. والملاحظ أن هذه النزعات سوف تضمحل في النصف الثاني من القرن العشرين، الذي سوف يشهد عودة إلى ظهور النزعات الفردية مرة أخرى والمتمثلة في المذاهب الليبرالية الجديدة.

5 – النسـقية:

كان الفلاسفة المحدثين مولعين بإقامة أفكارهم في صورة نسق فلسفي متكامل. والنسق الفلسفي هو مذهب عام يحتوي توجهاً معيناً ويضم نظرية في المعرفة وأخرى في الأخلاق وثالثة في السياسة، كما يمكن أن يحتوي على مذهب ميتافيزيقي أولا يحتوي حسب موقف الفيلسوف من الميتافيزيقا سواء بالقبول أو الرفض. ويعبر وضع الفلاسفة لأفكارهم في صورة نسق عن الطابع الموسوعي للقرنين السابع عشر والثامن عشر، وعن إصرار هؤلاء الفلاسفة على الاحتفاظ بدور أساسي ومركزى للفلسفة وسط العلوم الطبيعية الجديدة الناشئة. فقد ظلوا يتمسكون بالدور المشرع للفلسفة بالنسبة للعلوم الأخرى، وبأن المعرفة الإنسانية واحدة ومتكاملة على الرغم من ظهور التخصصات الدقيقة وزيادة انفصال العلم التجريبي عن الفلسفة. ودائماً ما كانت نظرية المعرفة تحتل المكان الأول في كل نسق فلسفي، تليها الميتافيزيقا، سواء بالقبول أو الرفض، ثم الأخلاق وأخيراً السياسة. وقد ظهر هذا التقسيم للمذهب الفلسفي لدى أغلب الفلاسفة المحدثين. وكان هيجل آخرا لفلاسفة أصحاب الأنساق الفلسفية الكبرى، ولذلك ينظر إليه على أنه آخر فيلسوف محدث ينتهي عنده تاريخ الفلسفة الحديثة، لكننا أثرنا اعتباره أول الفلاسفة المعاصرين لأن الصورة الجديدة التي وضع فيها الفلسفة، والقضايا والإشكاليات الت يطرحها، سوف تكون لها أبلغ الأثر في كل تيارات الفلسفة المعاصرة. بحيث أن الفيلسوف في الحقبة المعاصرة لن يستطيع التفلسف دون العودة إلهيجل. وعندما نذهب إلى أن النسقية كانت خاصية مرتبطة بالفلسفات الحديثة فنحن نقصد بذلك أنها لم تعد تميز الفلسفة المعاصرة، التي هي فلسفة ضد النسق بصفة أساسية. فقد امتنع الفلاسفة المعاصرين عن وضع أفكارهم في صورة مذهب فلسفي، وآثروا الكتابة في موضوعات مختلفة متنوعة اتخذت شكلا لمقالات أو المؤلفات الفكرية التي تضم موضوعات متنوعة، مثل مؤلفات الوجوديين وفلاسفة مدرسة فرانكفورت، أو التركيز على قضية واحدة فقط مع الحرص على عدم صنع مذهب فلسفي منها، مثل أعمال برجسون وفلاسفة البراجماتية والتحليل. كما أن تركيز الفلسفة المعاصرة سوف يبتعد عن الفلسفة باعتبارها مذهباً أو نسقاً عاماً ويتحول إلى النظر إليها على أنها منهج، ولذلك سوف تظهر مناهج فلسفية عديدة في الفكر المعاصر: الفينومينولوجيا، التحليل المنطقي، الهرمنيوطيقا أو منهج التأويل،

البنيوية، التفكيكية، ومعنى هذا أن الفلسفة باعتبارها مذهباً أو نسقاً كانت ظاهرة مرتبطة بالفلسفة الحديثة على نحو أساسي، وسوف تكف الفلسفة عن أن تكون نسقاً مذهبياً في الفكر المعاصر.

ثالثا: أهم التيارات

1- العقلانية

2- التجريبية

للمزيد طالع:

1- ويل ديورانت، قصة الفلسفة.

2- زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الغربية.

3- وليام كولي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة.

4- أندريه كريسون، تيارات الفكر الفلسفي.

5- تيودور وايزمان، تطور الفكر الفلسفي.